عيسى عصفور

رئيس مجلس الإدارة
وزير الثّقافة
الأستاذ محمَّد الأحمد

الإشراف العامّ
المدير العامُّ للهيئة العامة السّوريّة للكتاب
د. ثائر زين الدين

رئيس التحرير
مدير منشورات الطفل
د. جمال أبو سمرة

الإخراج
حنان الباني

لوحة الغلاف
قحطان الطلاع

الإشراف الطّباعي
أنس الحسن

كانون الأول ٢٠١٧

عيسى عصفور

كتابة: مطيع حمزة

الهيئة العامّة السّوريّة للكتاب - مديريّة منشورات الطّفل
وزارة الثقافـة - دمشق ٢٠١٧م

الشاعرُ روحٌ خالد، يصوِّر من خفقات قلبه، وخلجات ضميره، وإبداع فكره عالماً نورانياً، فهوَ يقظانُ حالمَ، وارحمتا له!

القطرةُ على الزهرة دمعةٌ على خدّ، والعبيرُ عبقهُ من ريحِ أحبابه، وفي كلِّ ما يرى، ويسمع، ويتخيل، معانٍ حيّة، يخفق لها الشعرُ في قلبه، ويجيشُ في صدره، فيجري على لسانه سحرا...

خليل مردم بك

النشأة الأولى:

وقف الأستاذ صلاح صباح يوم مدرسي أمام طلابه، وقد كتب بخطّه الجميل أبياتاً مختارةً من الشعر على السّبورة الصفية، وحين انتهى من الكتابة استدار منشداً الأبيات بصوته الساحر والمؤثّر:

إن أقفرتْ مني الجيوبُ فخافقي
عفُّ المطالبِ بالمروءة آهلُ
إن لم يكن لي منزلٌ فسعادتي
أنّي بأكباد الأحبّة نازلُ
لا الفقر عارٌ يا رفيقُ ولا الغنى
مجدٌ، ولكنّ الحياة فضائلُ
ما حيلتي إن لم يكن من شيمتي
غزْل الرفيعِ، وما لديّ مغازلُ
حسبي ذراعٌ يحتويني من ثرى
وطني، وفي هذا ثراءٌ طائلُ

وطني نظمت لك الفؤاد محبةً
يبقى الودادُ وكلّ شيء زائلُ
وغداً ستورقُ بالنضال كرومُنا
ويعمّ أمتنا الرخاءُ الشّاملُ

غايةُ الحلاوة والجاذبية في تلك الاهتزازات الصوتية المشحونة بالتأثير الجمالي، إيقاع أو معنىً دفعت السامعين إلى التصفيق تعبيراً عن إعجابهم ولهفتهم لمعرفة قائلها ...

وهنا قال الأستاذ صلاح:

هذه لأستاذي الشاعر عيسى عصفور الذي لم تثنه الحياة القاسية المريرة بآلامها وشقائها عن عزف أنغام الأمل والطموح وحبّ الأرض والرفاق، إذ حمل في قلبه لهباً متّقداً من النبرة العروبيّة الأصيلة ببيان مشرق، وجذوة نضال لا تنطفئ، فالشعر زادهُ الذي انطلق به من فوق الصخور ليقول:

نحن - جيلَ الخمسينيّات - نرفض الواقع العربيّ المريض، ونسير في قافلة الوحدة حقيقة لا حلماً، وتابع قائلاً:

هو ابن قرية أمّ الرمان في محافظة السويداء جنوبيّ سورية، قريةِ الوفاءِ لكل ما في الوطن من جمال، تزيّنت نفوس أهلها بالصبرِ والكبرياء والعزّة؛ تلك القرية التي هبّت لتستقبل القائد العام للثورة السورية سلطان الأطرش، وتهتفَ لبزوغ فجر الثورة على الاستعمار الفرنسي.

فقد ولد شاعرنا سنة ١٩٢٣م فوق تلك الربوع ذاتِ التاريخِ النضاليّ الذي نشأ عليه، ففي كلّ بيت ذكرىً لعيسى، وعلى كل لسان عبقٌ من كلماته، وفي كل شهقةٍ حنينٌ لتلك البلاغة وقد أعلينا لها المنابر، وفتحنا ينابيعها لنرتويَ جيلاً، بعد جيل، بعد أن اعتادتنا الذكريات.

عصفور طالباً ومعلماً:

وحين أنهى الأستاذ كلامه سأله أحد الطلاب:

- وكيف تابع شاعرنا تعليمه في ذلك المكان البعيد؟

- انطلق عيسى يا أحبتي متلقياً تعليمه الأول في قريته، وتابعه في مدينة السويداء حتى الصف التاسع، لكن رحلة العلم كتبت عليه أن يسافر إلى دمشق على الرغم من ضيق الحال، وبُعد المكان، ومعاناة الوصول، ليتمّ تعليمه الثانويّ.

ولأنّ طموح العلم لا حدود له عند الإنسان قرّر عيسى أن يختار دار المعلمين في دمشق التي درس فيها خيرةُ الأدباء والمفكرين والسياسيين، وتتلمذ لأساتذتها شعراءُ مبدعون وفنانون أصيلون، حملوا حبَّ الوطن في قلوبهم، وجعلوا من دمشق مدرسة للعروبة الأصيلة، ونال شاعرنا شهادةَ أهلية التعليم ليصبح من أوائل الخرّيجين، قريباً إلى طلابه، متحمّلاً الأعباء المهنية والإداريـة في أثناء حكم الدكتاتوريات، إذ نُقل نقلاً

إجبارياً إلى القلمون كحال أغلب المعلمين المخلصين لرسالتهم السامية في التوعية وغرس قيم السلام والدفاع عن الوطن والعروبة، ونراه يخلّد كل صاحب فضيلة سامية، ولعل التعليم من أسمى الفضائل التي غرسها في نفوس طلابه الذين سُمعت شهاداتهم فيه، وهو يلقنهم اللغة الفرنسية التي حذقها، والموسيقا التي أنشد بها أهم قصائد الشعر بصوته الأجشّ.

فالإنسان ليس إلا كائناً يتفوّق على نفسه بفضيلته، وكما يقول نيتشه على لسان (زارا):

(وجب عليك أيها الإنسان أن تُحبّ فضائلك؛ لأنك تحيا بها ...)

فلنستمع إلى ما قاله أستاذي في المعلم:

هجرَ الأهلَ هازئاً بالعناء
في سباق إلى ذرا العلياءِ
يتلوّى في بؤسه وتراه
باسماً ثَغرُهُ عظيمَ الرجاءِ

هو في عالم من الطهر والأحـ

ـلام صافٍ معطر الأرجاءِ

لا يبالي وهو الوفي المرجّى

أن يدين الورى بغير الوفاءِ

فهو يستعذب الجهاد بريئاً

لا لجاهٍ، أو راحة أو ثراءِ

همّه رفعُ أمةٍ تتدلّى

نحو مستقبل لها وضّاءِ

يا طبيبَ النفوس، يا بسمةَ الكو

ن ويا مشعل الهوى والضياءِ

مُهجٌ بين راحتيك تغذّيـ

ـها بذوب المكارم الشمّاءِ

ويتابع الأستاذ صلاح:

أخبرنا أستاذنا عيسى أنه أحبَّ دار المعلمين ببنائها الساحر، وفنّها العمراني الرفيع، وقبابِها الملوّنة، ونظافتها الأخّاذة وسط دمشق بأسرارها الدنيوية، وحياتها الرخية، وأحبَّ معلميه ورفاقَه الذين زرعهم في ضلوعه، فكانوا أشعّة تسلّلت عبر عَتمة الواقع معلنة شروق شمس الاستقلال عام ١٩٤٦م، ويكبر حبه كشجرة سنديان رمت جذورها في الصّخر، وعلت، وارتوت من وعورة الجبل، فيكتب العديد من الأناشيد المدرسيّة، وأبرزها نشيد دار المعلمين حيث حاز به الجائزة الأولى عام ١٩٤٥م:

دارنـــا دارةُ المـعـالي ذكـرُهـا شـرّفَ الزمانا
هـي في حـالـكِ الليالي شـعـلـةٌ سـدّدتْ خطانا

أتينا نغذي طموحَ الشبابْ فكنتِ الـغـذاءَ لنا والأمـلْ
وكنتِ السفينَ يشقُ العبابْ بنور العلوم وصدق العملْ

أرضنا مصرع العدا
قلبنا روضة الندى
منبتُ الخير والشممْ

دعتنا البلاد ونعم النداءْ وألـقـتْ إلينا بأكبادها
فكنّا العزاءَ لها والرجاءْ وكنَّا الـفـداءَ لأمجادها

دارنا دارة الزمنْ
عزُّها نهضةُ الوطنْ
سيّداً يسبق الأممْ

لنا همـةٌ لم تنلْها النسورْ وفي صفحة الخلد آثارنا
تبيدُ الحياة وتفنى الدهورْ وتبقى منـارَ الهـدى دارنـا

عيسى عصفور أديباً وطنياً:

وبعد أيام سأل أحد الطلاب أستاذه، وقد ظلت صورة الشاعر محفورة في عقله ووجدانه:

- قرأت أنَّ المستعمر الفرنسي كرّس الانقسام، وباعد بين أجزاء وطني الحبيب سورية، فهل أثر ذلك في شاعرنا عيسى عصفور؟

شعّت عينا الأستاذ صلاح توحيان باعتزاز كبير، وأجاب:

حريّة سورية، وصيانة وحدة أرضها وتماسكها كانت جميعاً هدفاً نضاليّاً صاغه في شعره، وهو يدرك أن النصر آتٍ والحرية واقع قادم، لا يحجب نورها استعمار، ولا تمنع وحشيّتهم من تحقيقها، وإن طال المدى، يقول عيسى عصفور:

سنظلُّ سادةَ أرضنا ... ويموتُ من غيظٍ عدانا
فاليوم عيدُكَ يا شهيـ ... ـدُ فنم قريراً في حمانا
اليوم حرّرت الشّآ ... مُ اليومَ شرّفت الزّمانا
وغداً سيطلع نورك السّا ... مي يشعشع في سمانا
يا موطني هذا الجلا ... ءُ منارة تهدي سرانا

عروبة عيسى عصفور:

رفع طالبٌ آخر يده بحماسة، واستأذنَ الأستاذ صلاح بالكلام، ثمَّ قال:

حدّثني والدي أنّ العروبة ملأت قلبَ شاعرنا مثلما ملأت قلوب الكثيرين من أبناء جيله، وأنّ كلَّ بقعة من بقاع الوطن العزيز الكبير ماثلة في وجدانه قولاً وفعلاً!

- هذا صحيح يا بني...!

فنضوج وعي الشاعر الأدبي تجلّى ممتزجاً بالوعي السياسي في مرحلة كان فيها الوطن مُهدّداً بهويته تحت ظلّ الاحتلال الفرنسي، ومحاولته تمزيقه إلى دويلات مشرذمة، فمن الطبيعي أن يكون شعره ذا نزعة قوميّة عالية، تتوق إلى المثل الأعلى في التراث العربي بذائقته الجمالية عبر أنموذجاته التقليدية، فالنموذج البطولي الذي يعبّر عن القيم الاجتماعية والوطنية والقومية، والذي يدافع عن الحقّ والعدل والسيادة جليٌّ في رثائه المجاهد صياح النبواني:

صيّاحُ، ما رانتْ علينا ظلمةٌ
إلا وأنت بريقُها اللّماحُ
عاش الجهاد مروءةً وتعفّفاً
لا مطمع فيه ولا أرباحُ
ما نالَ من إيمانه وعناده
في الحقّ طاغيةٌ ولا سفّاحُ

وروى أصدقاءُ عيسى عصفور أنّه كان يمتلك حساسيّة عروبيّة ورؤيةً قومية تجلّت في دعوته الدائمة للوحدة العربيّة، والكفاح من أجل تجاوز الألم المشترك الّذي يصهر الأمّة كاملةً، واستعادة الملامح العربيّة الضائعة بعد الانتكاسات والكبوات الكثيرة.

وكغيره من الشعراء لم ينسَ ما يعانيه إخوانه في أرض فلسطين، في ظلّ الاستعمار الإنكليزي والاحتلال الصّهيوني معاً.

وحينَ نوديَ لإنقاذ فلسطين من غياهب ليلٍ طالت

ظلمتهُ، ومصيرٍ ينذر بالسّوداويّة والخوف، أسرع الشّباب في سورية إلى المساندة الفعليّة من خلال جيش الإنقاذ عام ١٩٤٨م ثمانيةٍ وأربعين وتسعمئة وألف وهذا ما يرضي نزوع «عيسى عصفور» القوميّ، ففلسطين في قلبه، ومناجاتها تعانق كلَّ كلمةٍ من كلمات قصائده، وقد ناداها يا بنيّ قائلاً:

يا فلسطين المليحةْ مهجة العرب الجريحةْ
لن تكوني للأعادي فاخلعي ثوبَ الحدادِ
فعلى هذي البوادي أمةٌ هبّت تنادي
أنتِ للأحرارِ من أحفادنا

وأتذكّر موقفه حينَ شُطبَ اسمه من قائمة الشّباب الذين قرّروا أن يكونوا نواة سرّية في جيش الإنقاذ.

وهنا لمح طلاب الأستاذ صلاح غشاوةً من الدّمعِ تغالبُ جفنيه.

توقف لحظاتٍ... ونظر إلى الأفق البعيد...

ما أصعب الصمت حين ينقلنا إلى عالمه الغامض!

ما أصعبه حين يكشف ما اعترى النفس من مشاعرَ تتبدّى في ملامح الوجوه!

ها هو ذا الأستاذ صلاح يتابع حديثه:

دخل أستاذي - معلم الابتدائيّة - إلى مكتب محافظ السويداء آنذاك عارف النكدي محتجّاً، ومستفسراً عن سبب شطب اسمه من لائحة المتطوعين؟! وكان الغضب بادياً على محيّاه، ونبرةُ صوته توحي بالدهشة والاستغراب سائلاً المحافظ:

«من حقي أن أكون مع أبناء بلدي في دعم إخوتي الفلسطينيين، فلماذا أحرم من هذا الشّرف؟!»

ردّ المحافظ:

نحن نقدّرُ فيك هذا الحسَّ القوميّ يا أستاذ عيسى، ونحن نحتاجك هنا، ولو ذهبت أنت وكلّ المعلمين إلى فلسطين فلمن سنترك مدارسنا؟! ومن سيعلّم أولادنا؟!

يبدو أن ردّ المحافظ لم يؤتِ ثمارَهُ مع الرّجل المندفع لعروبته وقضيّته.

وكرّرَ الأستاذ عيسى:

آمل ألا تحرمني يا أستاذ عارف من المشاركة في معارك الشّرف العظيم هذه، فأنا أحلم منذ صغري أن أكون بين أبناء فلسطين، وأن أسهم في ردّ العدوان، وأن أكافح لأجلها.

قالها بنبرةٍ حادة، واغرورقت عيناه بالدموع، ثمّ بكى...

نعم بكى هذا الرّجل لأنه لم يُقبَل...

بكى بعد أن نزف حلمه، وأوصدت أبواب اللحظات التي يتوق إليها، تجتاحه غصةٌ عارمةٌ، وفي ضلوعه يعشعش وجعٌ يطلُّ فيما بعد مع كل قصيدةٍ قالها في موقف وطنيٍّ أو قوميّ، وذلك وسط دهشة المحافظ وتقديره لهذا الإنسان النبيل الصادق في مشاعره.

اقترب منه، وربّت على كتفه، وهذا ما جعل الدموع تسيل على خدّيه بعد خيبة أمله في تحقيق هذه الأمنية الخالدة، ثمّ قال له:

- لا تحزن يا أستاذ عيسى، إن ميدان فلسطين يتسع للجميع، لك، ولابنك! ولابن ابنك!

- نهض الأستاذ عيسى، واستأذن المحافظ بالخروج، والألم يعتصر قلبه والانكسار النفسي يملؤه.

وكأنّي بالشاعر يحمل مسؤوليّة الكلمة والفعل، ويندفع بعزيمته وغيرته وحميّته، غير معترف بالحدود المصطنعة، فهي حدود وهميّة يجب إزالتها من الأراضي ومن النفوس، ولعلّه أدرك أنّ الخطر الذي بُذر في أرض فلسطين يتحفّز لوثبة يستولي بها على بقية القدس وأماكنه المقدسة، تتبعها بأخرى تستكمل فيها الاستيلاء على فلسطين وشرقيّ الأردن ولبنان وسورية و...

وفي قصيدته الأجراس يقول:

فيمَ الترنُّمُ والصلاةُ وفيمَ أجراسٌ تُدقُّ؟
وبنودُ إسرائيلَ في أرض المسيح لهنَّ خفقُ
وبمسجد الفاروق نامَتْ نخوةٌ واغتيلَ حقُّ

علاقته بالشخصيّات العربية المناضلة:

سمعنا يا أستاذ أنّ الشاعر كان على علاقةٍ بالشّخصيات التّاريخية في ميادين النّضال والمقاومة، فهلا حدّثتنا عن موقفه منها؟

نعم يا بني!

كان على علاقةٍ قويّةٍ بالقائد العام للثورة السوريّة الكبرى «سلطان الأطرش»، يلتقيه دوماً في بلدته «القريّا»، فيستمدّ منه الحميّة ونخوة العربيّ الأصيل، وصلابة السنديان التي يستند إليها حين تهون العزائم ممّا أصاب العروبة، وأهمَّ أبناءها.

فـ «سلطان» رمـزٌ للشخصيّة الـتي أحـبّ، وعنوانٌ للنبل والتواضع وإغاثة الملهوفين والدفاع عن الشرف، والإخلاص في محبة البلاد، والتعلّق في ثراها الطّاهر.

ما أروع تلك القصيدة التي حملت اسم هذا القائد من جيلٍ إلى جيل، وظلّ خالداً ببطولته وشموخه:

حيِّ المروءة في محراب سلطانا
واخشع لمثواه إجلالاً وعرفانا
ما ذاك قبرٌ، ولكن قمّـةٌ شمـخت
وطاولت موكب الجوزاء ميدانا
منارةٌ أنت في دهماء ظلمتنـا
يفنى الزمان وفي ذكراك مرسانا
لا تسأل السّهل عن «ميشو» وعسكره
وعن جحافلَ من أحفاد عثمانا
صاروا لنار الوغى طعماً، ومزّقهم
عند اللقاء نسور من سرايانا

وتغرينا هذه الأبيات التي تخلّد شخصية القائد سلطان الأطـرش بنقل صـورة بعض الشّخصيات الوطنيّة التي تضوّعت من أفعالهم رائحة التّضحية والبطولة، فما قيمة الشّاعر إنْ لم يرتبط ارتباطاً حقيقيّاً بقاعدته الجماهيريّة العريضة يُعبّر عن أهدافها في الحياة، ويخلّد مسيرة العظماء بعرض تاريخهم ووقائعهم وآثارهم؟!

فالكلمة الدّافئة تفعل ما تفعله في الوجدانُ حين تنقل أخـلاق الأبطال مجسّدة بالمجاهد مجلّي حمد البربور ابن قريته أم الرّمان، الذي رثاه قائلاً:

لا، لم يمت، إنّه الأخلاقُ والشّيمُ
أمضى من الموتِ بأساً هذه القيمُ
ذكّرتني موكب الأحرارِ من وطني
شابَ الزّمانُ وما شابت لهم هممُ
وكنتَ رائدنا، تهـدي مسـالكنا
عند العِثار إذا زلّـت بنا القدمُ

وثمّة شخصيّاتٌ وطنيّة تركت بصماتها على شاعرنا، وكان لها جلُّ الأثر في أدبه من جهةَ، وفي المحافظة على هُويّته النّضالية العروبيّة الأصيلة وسط ظروف تشعّبت فيه حبائل اليأس، وغدا أمل خلاص الإنسان العربيّ منها صعب المنال.

وحسبي سلامة عبيد رفيق القلم، الذي تجرّع معه كؤوس تلك المرحلة بأفراحها وأحزانها، وأحسّا معاً بمعاناة أبناء الشّعب، مبتعدين عن ميدان التّسابق على التكسّب والإثراء واسترضاء الآخرين.

وكم كانت صدمته كبيرةٌ حين فارق صديقه «عبيد» الحياة بعد عودته من الصّين، فالوداع الأخير مرٌّ، والأحلام الّتي تشاركا فيها تلاشت، إنّها جدليّة الحياة:

(سلامةُ) أنت رمزٌ عبقريٌّ لآمالٍ مجنّحةٍ عذابِ
عرفتَ العيشَ ملحمةَ وبأساً وعزماً لا يلينُ ولا يحابي
وأنكرتَ الثّراءَ العمرَ زهداً ولم تفتنْك شامخةُ القبابِ

ولا ريبَ أنّ هذا الصّوت العروبيّ يقف بإجلال أمام القامات التّاريخيّة التي حملت رايةَ الكفاح، ففي

استحضاره صورةَ الأمير عبد القادر الجزائري ينقل لنا في شعره ميراثاً عظيماً، في الأدب، وفي السّياسة، وفي مناهضة الاستعمار الفرنسيّ في الجزائر قبل نفيه إلى دمشق عام ١٨٥٦م ووفاته فيها عام ١٨٨٣م؛ حيث ضمّه حضنُ قاسَيون حتّى عام ١٩٦٥م حيثُ نُقِلَ رفاته بعد استقلال الجزائر.

يقول شاعرنا:

يا سيّـد الأبطالِ عفوكَ، أينَ لي
أن يمسحَ الجرحَ الرغيب كلامُ؟
آمنتُ بالحقـدِ الكريمِ مطهّراً
أرضي، فلا رجسٌ ولا أزلامُ
لي من مآثرِ أمتي وعروبتي
قبسٌ على شغف الأمير ينـامُ

فعيسى عصفور ينشد فيه أمّةً متحفّزةً للنهوض، فهو لا يقبع في زوايا المجتمع، ولا يتعالى ولا يركد مع الرّاكدين.

«عيسى عصفور مترجماً»:

وها هو ذا الأستاذ صلاح يقول بعد أيام:

وفي ميدان الأدب العالمي يا أبنائي تكون يد الأستاذ عيسى ممدودةً تصافح أعمالاً أدبيةً، وقانونية، وسياسية، فيسافر بعد دار المعلمين إلى فرنسا ليكمل دراسته في الحقوق، لكنّه لم يتحمّل مرارة الغربة، فقررّ العودة إلى أسرته ووطنه لما يحمله من حنين عاطفيّ دفّاق، عاد إلى مرابع الطّفولة، وإلى رفاق الدّرب ليتواصل معهم، ولينقل لهم مشاعره وإحساسه بكلّ ما يحمله.

ولعلّني أجد في هذا التّواصل غيرةً ما بعدها غيرة على ثقافة العرب، تجلّت في ترجمته العديدَ من الآثار الفكريّة والأدبيّة بالفرنسيّة الّتي أتقنها؛ لأنّه رأى أنّ العرب بحاجة إلى أن يفتحوا أبوابهم لنسائم الحضارة الغربيّة، فهو مؤمن بدور التّرجمة في نهضتهم.

فأذكر أنّه ترجم أكثر من سبعين كتاباً، منها على سبيل المثال لا الحصر:

- «فلسفة الثّورة الفرنسيّة» لبرنار.
- نصوص مختارة لبابوف.
- «انتحار الديمقراطيات» كلود جوليان.
- «العالم الثّالث هل يستطيع البقاء؟» جاك لو.
- «تاريخ الجزائر المعاصرة» شارل آجيرون.
- «الجريمة» جانماركيزيه.

وغيرها الكثير من كتب السياسة والقانون والفكر.

ومن يقرأ ترجماته يرَ أنّه يعبّر عنها بلسانٍ عربيّ جميل، وأسلوب ساحر، وعبارات رشيقة.

فهو يهيم بالعربيّة حبّاً، ويثق بعبقريتها، خاصةً أنّه كان يرى أنَّ ما يقوم به في الترجمة ما هو إلا استكمالٌ لمهمةٍ قوميّة يسعى إليها، وليس هوايةً.

ويبرز شعوره بتلك المسؤولية في كلّ عملٍ ترجمه، فنظريّة الترجمة العلميّة الرّاقية لديه تدفعه إلى العمل لإيصال الشكل والمعنى بأكبر دقّة ممكنة، وهو مؤمن أيضاً بأنَّ التّرجمة قضيّة أمانة للمصطلحات لا خيانة...

عيسى عصفور قاضياً:

انطلاقاً ممّا كتبه الأستاذ محمد طربيه عن شعر عيسى عصفور نقدياً:

(الشعر عند عيسى عصفور لم يكن تباهياً أو افتخاراً أو استعراضاً لمخزونه اللغويّ أو براعته الفنيّة، أو بقصد زيادة عدد قصائده أو الحصول على جزاء ماديّ أو معنويّ من نشر ما أبدع من شعر).

وما كتبه الأستاذ رضوان رضوان:

(ليس في ذهني أجمل من مثل هذه المناسبة؛ نحيي فيها ذكرى إنسان عظيم وفنان مبدع، عاش على الكفاف، وقنع به التزاماً بكرامة النفس وراحة الضمير. وهو المرحوم (عيسى عصفور) الذي حذّر من انحراف العلم والمال وسطوتهما على الحياة الإنسانيّة الطبيعيّة، إنّه من الجيل الذي لم يهزم بريقُ المال نفوسهم، ويفسدْ ضمائرهم).

أعرّفكم بقاضٍ سعى في أنحاء وطنه سورية ناشراً قدسية العدالة، حاملاً قيم النزاهة والعفّة، غنياً بمحبة زملائه في سلك القضاء، وحسبي في هذا المجال أن أذكر ما كتبته الدكتور نجاة قصاب حسن في إحدى الزوايا الصحفية بعد وفاته:

عرفت هذا الصديق الوسيم الناعم المهذّب منذ كان وأخي طالبين في ثانوية دمشق، ثمّ ترافقنا في القصر العدلي، هو قاضٍ، وأنا محامٍ، فاذا تقابلنا فيما يسميه الفرنسيّون ردهةَ الخطواتِ الضائعة (يعنون الأروقة) كان الابتسام تحية، والشعرُ الضاحك حديثاً، والشكوى من الزمان كرفقةِ تصيب وتصمي وتضحك، ولست أنسى يوم صرتُ أحرّر صحيفة شعريّة لاذعة باسم (القزيطة) المحوّلة تحويلاً فكاهيّاً عن (الغازيت دو باليه) التي يصدرها المحامون في فرنسا، أنه أرسل لي مشاركاً هذه الأبيات التي نشرتها بتوقيع (ع ع) وكان يرسلها إلى المراجع بدل التقارير المألوفة.

١- شبّاكنا:

شبّاكُنا عبثَ الزمانُ بحاله
يشكو الأذى، وزجاجُهُ مكسورُ
ويضجُّ من إهمالنا فنجيبُهُ
لا تبتئسْ إنَّ الكريمَ صبورُ
اليومَ ينقذكَ المحاسبُ قبل ما
تأتي الثلوج، وبردُها المشهورُ
فيشيعُ دفءٌ في الضلوع، وتنجلي
مأساتنا، ويغرّدُ العصفورُ

٢- (الشوفاج):

اِرأفْ بحالتنا ولا إحراجُ
فالبرد يلسعُنا ولا (شوفاجُ)
في القاعةِ الأولى تعطّلَ سيرُهُ
من دونكم ما للأمورِ علاجُ
والقوسُ يرقصُ من صريرِ عظامنا
مذ غابَ عنّا دفؤهُ الوهّاجُ
وغداً يقرّعنا المفتّشُ أن هوى
(مفصولنا) وتعرقلَ الإنتاجُ
إصلاحُهُ رهنٌ بكم ياحبّذا
لو تأمرونَ فينقضي الإزعاجُ

مختارات شعرية خالدة:

لم يَجْمَعْ عيسى عصفور شعرَهُ خلال حياته الغنيّة بالعمل والإبداع والترجمة عن اللغة الفرنسيةَ، وترك قصائدَهُ بين أيدي أصدقائه ومُحبّيه، وعلى صفحات بعضَ الصحف التي نشرتهاَ... حتّىَ قامَ الأستاذ عيدَ معمّر بجمع بعضها ونشره، ثُمّ تلاهُ صديقا الشاعر الأستاذان رضوان رضوان وعادل رزق بنشرِ ديوانٍ جامعٍ لنصوصه بما فيها شعْرُهُ باللهجةِ المحليّة.

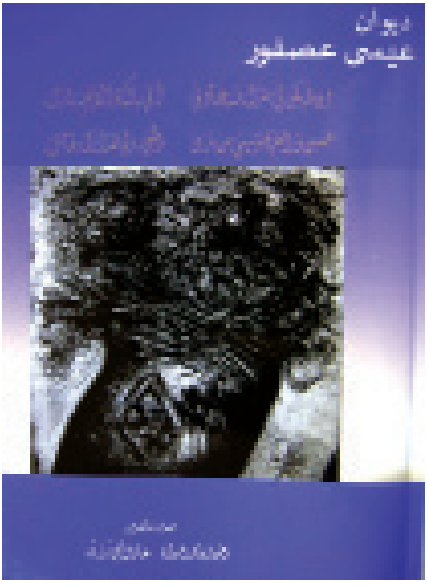

الجــلاء:

لا تعجبي، هـذا حمانـا حَرَمُ البطولة منذ كانـا
تـاجٌ على هـام الـدنى تزهو به الأرضُ افتتانا
في سهـلـه وحــي الـنـبـوّة بـاسمـاً يـهـدي ســرانا
وعـلـى ذراه الـشـامخـات تــرفُّ عـاطـرة عُـلانـا
يحـمـيـه شـعــبٌ نـازلـتـه الـنـائـبـات فـمـا تــوانـى
مـن كــلّ أروع ماجـد رضيَ المنونَ وما استكانا
كم من فتىً غضّ الشباً ب ثـوى شهيداً في ثـرانا
أنكون في أوطاننــا مغلولةً قهراً يـدانا؟!
وتظلُّ شُـذّاذُ الـورى تختالُ تيهاً في ربانا؟!
أو لم نكنْ أسـدَ الـوغى نجلو ظُلامةَ من دعانا؟!
فكأنّمـا هـذا الزمـا ن لنصرة الحق اصطفانا؟!
لا، لن نقيم على الأذى وهوى العروبةِ في دمانا
سنـظلُّ سـادةَ أرضنا ويموتُ من غيظ عدانا
قل لـلألى طمعوا بنـا من شـنّها حرباً عوانـا
قشعت ضلالات الحجى ومحَتْ عن الدنيا الهوانا

بيــدٍ تهــزُّ طغاتــها وتروض منهـا العنفوانا
و يـدٍ تلامـسُ جرحَها عطفاً وتكسوها الأمـانا
فـهـوتْ جـبـابـرةُ الـعـروش كـسـيرةً تـبـغـي رضـانـا
وهـفـا لنـا الـكونُ الفسـيحُ مـرحّبـاً يقفو خطانا
ظلّـــت تحنّ إلى الهـدى حتّى وهبناها هُـدانا
الـيـوم عـيـدك يـا شـهـيدُ فـهل عـلـمْتَ بمـا دهـانـا
صـبّـوا علينا الـنـقـمةَ الحـمـراءَ بـعـدك يـا فتانا
سـامـوا تـراثـكَ يـا أبـا الأبـطـال عـسـفـاً وامـتـهـانـا
فـتـنـادتِ الأحـــرارُ يـالـلـثـار يـذكـي مـن لظـانـا
وتمـلـمـلت فـيـنـا بـقـايـا الـسـيـف تـوسـعـهم طِـعـانـا
فجلــوا وأيــامـاً لهـم ســـوداً تـركـنـاهـا ورانـــا
فـالـيـوم عـيـدك يـا شـهـيدُ فـنـمْ قـريـراً في حمانا
الـيـوم حـــرَّرتَ الشـآمَ الـيــومَ شـرّفتَ الزمانا
وغـداً سيطلعُ نـورك السامي يشعشع في سمانا
حتّى تقـرَّ بعـودة القـدس الشـهيدة مقلتانـا
ويعــود وادي النيـل تيّاهـاً ويزهـو رافـدانا

يا موطني، هذا الجلاءُ منــارةٌ تهــدي ســرانا
لبيـك إنّـك لـن تـرى في الأرض مظلوماً أخانا
إنْ لم نحـــرّرْ شاطئيك فــإنَّ يعـرب مـا نمانا
في مسمع الـدَّهر البعيدِ يـرنُّ موزونـاً حُـدانا
تمضي العصور وتمّحي ويظلّ خفّاقاً لوانـا

نيسان ١٩٤٦

قـاضٍ:

طـاوي الجناحين لا ريٌّ ولا شـبَعُ
قـاضٍ ويقضي عليه البؤسُ والهلعُ
في بردةٍ نسـجُها زهـدٌ ومـأثرةٌ
يَزينهـا الخالـدان: الطُهر والـورعُ
يشـكو الصغارُ له عرياً ومسغبةً
والنـاسُ من حولـه صمٌّ فما سمعوا
تمـرُّ من حولـه اللذّاتُ ساردةً
وأيـن مـن عيشـهِ اللذات والمتعُ؟!

وأوّلُ الشهـر يُلفـى مثـلَ آخـره

وتسـتوي عنـدَهُ الآحادُ والجمعُ

يفـني الليـاليَ إيثـاراً ومكـرمةً

لا الجـدّ أجـدى ولا أصحابه شفعوا

تخالـه من صفاء الـروح في دعةٍ

وفي الملفّات مـن أنفاسـه قطـعُ

إنْ كنت عفّـاً فقد ضـاقَتْ مسالكها

أو كنت ذا حظـوة فالأمـر متّسـعُ

كـم طالعين بـلا علـمٍ ولا خلـقٍ

لولا النفـاق الذي عاشـوه ما طلعوا!!

حطّـمْ بكفيـك قيثاراً لهـوتَ بـه

فأنـتَ في جوقة العـزّاف مسـتمعُ

ورُبَّ دهـرٍ يمـوت الحقّ مـن سفهٍ

فيـه، وينتصـرُ التضـليلُ والخـدعُ

يستصـغرونكَ تصـنيفاً ومرتبـةً

وفـي فـؤادك للعليـاء منتجـعُ

و يحسـبونكَ فـي تعـدادهم رقمـاً

كأنَّـما الفكـرُ في أسـواقهم سلعُ

و يمنعونـك إذ تعطـى فـلا أسـفٌ

في حسـبة اللّه ما تعطـي وما منعوا

كم جولةٍ لـكَ في سـاح الجهـاد روتْ

أنبـاء روعتهـا أرضٌ ومجتمـعُ!

ألـيسَ فيـك لـدى الجلّـى وكربتـها

بقيـةٌ مـن شـفار السـيف تلتمـعُ؟!

لا كنـت من يعربٍ إنْ لم تعدَّ لهـا

قلبَ الكـريم وعزمـاً ليس ينصدعُ

فـي بصـرى:

إلـى حـوران داميـة البطـاح

ومعجـزة البطولة والكفـاحِ

ورفقتك الكـريمُ «أبـو قصـيٍّ»

ومفخـرة الشبـاب «أبو ربـاح»

وصحبٌ يقفلـون الليـل صبحـاً

إذا مـا عربـدت هـوجُ الرياحِ

وكانـت في شباب الدهر بصرى

وكـان نسـيمها عَبَق الأضاحي

وهبتك يا بنـة «الزَّيـدي» فـؤادي

ولن يُطـوى علـى غدرٍ جناحي

وحقِّـكَ ما تركتُ الساحَ يومـاً

ولا ألقـيت من تعبٍ سلاحي

أنا العربيُّ تلهمني الرزايا

وتنبثقُ المروءةُ من جراحي

أطلّ البعثُ يا بصرى فعودي

فقد لاحَتْ تباشيرُ الصباحِ

وجنّبني الشرابَ أبا قصيٍّ

فإنّي من هواها غير صاحِ

معلولا:

ما زلتُ أسمعُ بالنُعمى ودارتها
وبالمروءة حتّى قيلَ معلولا
شبابُها كالندى عِطراً ونائلةً
وشيبها كشفارِ السيفِ مصقولا
مُجلجلٌ صوتُها عبرَ الدهورِ هدىً
وشامخٌ بأسُها كالزند مفتولا
الباذخُ الفذُّ من عالي شواهقها
ما زالَ بالعزمِ والإيمان مأهولا
أمّا الفِجاجُ فدربٌ للعلى بقيتْ
مضفورةً في جبين المجد إكليلا
وكم تمنّتْ أسودُ الغابِ لو جعلتْ
منها عريناً لعزَتْ أسْدُه غيلا

تصدَّرتْ سدةَ التاريخ ملحمةً

من البطولات جيلاً يقتفي جيلا

كالصبح منبلجاً، كالثغرِ مؤتلقاً

كالبحر محتدماً، كالغيث مأمولا

إذا تعالى أذانٌ عَبْرَ مسجدها

دوَتْ كنائسُها حمداً وترتيلا

هوى العروبةِ والأوطانِ يجمعُها

على المحَبةِ قرآنا وإنجيلا

لو استطعتُ وقلبي لهفةٌ وهوى

أَشْبَعْتُ تربتَها ضمّاً وتقبيلا

أمّ الرمان – عيسى عصفور:

ولعلّ من أجمل ما عثرت عليه بين الأوراق قصيدة «عهد» التي كتبها قبل وفاته بشهرين - وهي مكتوبة بخطّ يده - يصف فيها غياهب العمر وحبّه الدائم لقريته ورفاقه في مسقط رأسه «أمّ الرمان» بوفاءٍ عزَّ نظيرُه:

لئن عجزت رجلي، وهُدّت مفاصلي

فإنَّ فؤادي المستهامَ طليقُ

يطير إليكم كلّ يوم وينثني

وفوق جناحيه أخٌ وصديقُ

إذا الدهرُ في ليل الغياهب لفّني

ففي منتدى الأهل الكرام شروقُ

لهم حاضرٌ يختار بأساً ونخوةً

وماضٍ بنفح الكبرياء عريقُ

أراني إذا ما لامس السَمعَ ذكرُهم

ألوبُ كما اشتاق النجاةَ غريقُ

عسى يبرأ الداء الذي استنزف القوى

فيحملني نحو الصحاب طريقُ

عليّ لهم في رحلة العمر نعمةٌ

وعهدٌ إذا اشتدّ الزمانُ وثيقُ

أم الرمان ١٩٩٢م

شهادات في عيسى عصفور:

بلاغة البازلت:

سنجد أنَّ هوى العروبة يمتلك على الشّاعر عيسى عصفور قلبَه، فتطلُّ من نوافذ قصائده كلّها؛ فقد جعل فنّه ناطقاً شعبيّاً عن كلِّ طموحاتها وآلامها وأفراحها.

وشعرهُ موظّفٌ للنّهوض بالهمم المحنيّة والنفوس المثلومة، مذكّراً شعبَهُ كعادتَه بأنَّ وراءَه في الأيّام السالفة تراثُ أميّة المجيد، وانتصاراتُ اليرموك، وحطّين وغيرها. كما ويرفض أن تكونَ الهزيمةُ هزيمةَ شعب، بقدر ما هي هزيمة أفراد لم يؤدّوا واجبهم الوطنّي.

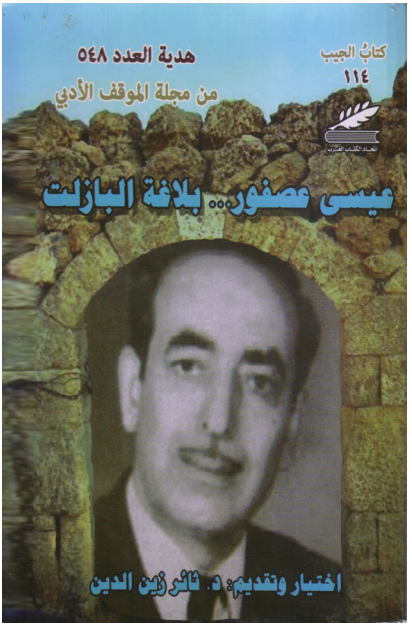

د. ثائر زين الدين

القيم الإنسانيّة الكبرى في رثائيّات عيسى عصفور:

مرثيّاتُهُ قدّمت أنموذجاً عربيّاً للبطولة بامتياز، فإذا بشخصيّاته مزيجٌ من الجميل والجليل، وإذا بالبطلِ المرثيّ بطلٌ ملحميّ يتّصف بالقوّة والشّجاعة، وهذا واضح في رثائه سلطان الأطرش ومجلّي البربور وصيّاح النّبواني، والشّهيد فارس الخطيب والشّهيد فايز حديفة، أو بطلٌ أخلاقيّ، يتّصف بالكرم والمروءَة والعفّة ونُصرة الضّعيف، وحماية الجار... كما في رثائه المربّين سلمان معروف وسلامة عبيد، وحسين الحجلي...

فالشّاعر المفتون بالبطولاتِ الملحميّة، مفتونٌ أيضاً بالبطولات الأخلاقيّة والسّير الحسنة والنّبل الإنسانيّ، فهما عنده وجهان لعملةٍ واحدة.

د. خليل موسى

قلّما عرفتُ صدراً أو قلباً اتّسعَ للعربِ كما اتّسع له صدر المرحوم عيسى وقلبه، وهو في أكثر قصائده يربط بين الماضي والحاضر، وبين مشرق الوطن العربيّ ومغربه، ويُدني المعارك الخالدة والمدن العربيّة بعضها من بعض، فإذا بها تتعانق وتتواصل من ذي قار إلى القادسيّة واليرموك، ومن حطّين إلى عين جالوت والمزرعة.

ومن القدس إلى حيفا ويافا، ومن دمشق إلى بغداد إلى يثرب وعدن في الجنوب، وإلى الأوراس في الغرب.

رضوان رضوان

مقتطفات ممّا قيل في تأبين عيسى عصفور:

وما الذي يبقى لنا من عيسى عصفور؟!

في حفل التأبين ذاك يلمس المرء لمس اليد عَظَمة القيم ونبل الإنسان النبيل، وينسى إلى حين سلّم القيم الطاغي...

ينسى أنّ قيمة الإنسان فيما يملك وحسب أو في سلطته على الرقاب... وينسى... وينسى... هي قيم استقرت في الوعي، ولا سبيل إلى انتزاعها ...

فكيف استطاع هذا الرجل أن يعيد الناس إلى قيم الطّهر والعفاف والترفّع عن كل الدنايا ...؟! كيف كان شافياً لما في النفس من أدران علقت بها، ثمّ نسأل: أيحتاج الأمر إلى فَقْدِ عزيز مثالٍ لكلّ ما هو جليل ونبيل في الحياة حتّى يعود إلينا إحساسنا بقيم تكاد تُنسى، وينزاح، ولو إلى حين ما صار في الحياة قانوناً قلّما يخرج عنه الناس، فإذا فقدنا أمثال هذا الرجل تذكّرنا، لا بل عرفنا أنَّ خميرة الأرض ما فسدت، ولا

يزال الملح في الوجود ممّا يجعله وجوداً مستساغاً نقوى على السير فيه... وعرفنا أنَّ العالم يقوم على أعمدة راسخات لا تهوي... فالفضيلةُ ليست غريبةً إلى تلك الدرجة الموهومة، فهي موجودة لكنّها جمرة في اليد والقلب والروح والعقل... جمرة تحرق، يحترقون هم فندفأ نحن باحتراقهم.

أو لم يمت ذاك المحتفى به محترقاً بجمرة حملها في روحه مذ كان يحبو أو يُحمل على كتف أمه، تسمعه هي، ويسمع هو أهزوجة انتصار الثوار في فاتحة الثورة السورية الكبرى، أهزوجةَ العزّة في ذاك الجبل المنيع... وفي السهل الفسيح... في كلّ آن كانت الأغنية للمجد... مجد الوطن ومجد الإنسان، ثمَّ صارت له أنشودته التي يتغّنى بها؛ لا بل صارت كلماته أنشودة على شفاه الناس، في زمن كان لا يزال يحمل شيئاً من قدسية القيم والفضائل، ولم تُلوّث صفحاتهُ البيضُ بغبار المال والجاه والسلطة... كانت كلماته أغنية الناس في ذاك الزمان، وعندما بدا الخراب يدبُّ في الأوصال، انزوى

الرجل في صومعة التوحّد مع تهويماته، يعتقد أنه سيعيد رسم الأشياء وسيغيّر خارطة الدنيا من حوله فيضع مكان الصخرة شجراً مخضرّاً، نستعيدُ تحت أفيائه عزّة العرب وأمجادهم من ذي قار إلى القادسية إلى اليرموك إلى حطّين.

إلى الجلاء إلى كلّ انتصار يراه هو انتصاراً، وقد يُسرق منه الانتصار، فلا يبقى له إلا أن يستعيد أوهام انتصار... يوم كان السيف والرمح سلاحَ القوم يقتحمون به ساحاتِ الوغى، ولا يكون إلا هزيمة الأعداء، وخلود الشهداء، يغنيهم هو وأمثاله من الشعراء؛ يستعيدون بأغانيهم مجداً يكاد ينهدم، ويعودون أسوياء هم والناس من حولهم، والطريف في أشعاره أنّ السلاح الذي يقعقع فيها؛ سيف ورمح وترس حتّى ليظنَ القارئ أنّ الشعر يعود إلى زمن بطولات فرسان السيف والرمح، وأنّ قائلها لا يمكن أن يكون معاصراً للتكنولوجيا التي تسحقّ العالم في كلّ مكان.

د. نايف شقير

عصفور الجبل وداعاً:

معذرة أبا فؤاد، فأنا لست شاعراً تنصاع له القوافي لينظم في وداعك أكثر المرثيات تأثيراً، ولست أديباً يمسك بناصية الكلمات ليدبّج أشد المقالات حزناً وأسفاً عليك.

معذرة لأنّي أقحم نفسي في مجال ليس مجالي، وأنا أعلم أنّ كلماتي هذه لا تستطيع أن تفيك أكثر من جزء بسيط ممّا تستحق؛ لكن شفيعي في ذلك هو حبّي واحترامي وتقديري لك، وفي المحصلة إنّها كلمة وفاء منّي لصديق عرفه النضالُ فارساً عربيّاً، والأدبُ شاعراً كبيراً، وعرفه الناس قاضياً نزيهاً وإنساناً بكلّ ما في هذه الكلمة من معنى.

عندما شيعناك إلى مثواك الأخير في قريتك أمّ الرمان في محافظة السويداء، ورأيتُ الجموع التي زحفت من كلّ قرية في جبل العرب، ومن دمشق لوداعك، عندما رأيت ذلك المشهد، أدركت حجم الفاجعة ومقدار الخسارة.

لقد كانت مفاجأة لي عندما سمعت من الأستاذ رضوان رضوان، الذي ألقى كلمة أصدقاء الفقيد أنّك الشخص الثاني بعد سلطان باشا الأطرش، وأنك كنت من الأوائل الذين حملوا راية البعث والعروبة، ومما أثار دهشتي أيضاً أنّك لم تتحدّث عن نفسك يوماً، وأنت الذي تحمل كلّ هذا الشرف؛ لم تتحدّث عن نفسك بشيء من هذا، إنّما كنت تتحدّث عن مآثر الآخرين من رفاقك، وعن نضالهم وبطولاتهم، وليس ذلك غريباً على إنسان متواضع مثلك.

أذكر أنّ آخر ما تحدثت به في هذا المجال قبيل وفاتك بأربعة أيام فقط، هو عن المناضل المرحوم حسين عبد الدين من جبل العرب فقلت حرفيّاً: لقد كان (زنبرك) الشباب أيام النضال ضدّ الاستعمار الفرنسي ولو أنه توفي في ذلك الوقت لاعتُبر بطلاً.

نعم أبا فؤاد لقد كنت تتحدّث عن أفعال غيرك، ولم تتحدث عن أفعالك، وإذا كنت أحجمت، فها هم أُلاء الذين عرفوك عن كثب، قد تحدّثوا على الملأ عن الشاعر المناضل، والقاضي النزيه، والمربّي الفاضل.

عبد اللطيف المقداد

رحيل عصفور الجبل:

قد يبدو للكثيرين مجهولاً الأديب والشاعر عيسى عصفور الذي طواه تراب قريته النائية أمس عن عمر ناهز السبعين عطاءً، لكنّ الذين عاصروا ثورة الثامن من آذار المجيدة، وعايشوا يوميّاتها آنذاك؛ يعرفون أنّ غالبية الأغاني الوطنيّة والقوميّة التي بثّتها إذاعة دمشق كانت من شعره، لكنّ عيسى عصفور القاضي وعضو محكمة النقض، والمحامي في تقاعده، كان أكثر حضوراً في البتّ، ومعالجة مشكلات الناس، نزيهاً نظيفاً كالكثيرين في وطن هو أحوج ما يكون فيه إلى هؤلاء، وفي زمن تتناطح فيه الأضداد حدّ القطيعة... أمّا المترجم عيسى عصفور فهو الذي أسهم إسهاماً بارزاً في نقل الأدب والسياسة الغربيّة إلى اللغة العربيّة وتحديداً المؤلفات الفرنسية التي بلغت ترجماته منها أكثر من سبعين عملاً كبيراً، كان يعتبرها من أولاده... ومن آثاره الطيّبة التي ستحمل ذكره بصمت الكتب... وضجيج المعلومات التي تحتويها أبداً.

د. فائز الصائغ

خاتمة:

وفي نهاية حديثه قال الأستاذ صلاح عن أستاذه عيسى عصفور:

والآن وقد انقطع اللقاء، وطُويت آخر صفحة قبالة هذا الرجل العروبيّ، أدرك أنّه ما زال يصبّ روحه فينا، ويُلقي بنفسه على شفاهنا، فتتورّد مقاماتُ حبّه بيننا، وبلابل شعره لا تتوارى في عالم الهجران.

فمن يتغنَّ بالشيم اليعربية الأصيلة يبقَ في حكاياتنا ومواسم حِصادنا، وقطاف زيتوننا، وفي دفاعنا عن حمى وطننا، ولن يهمدَ له سعي أو يرديه نسيان، وستبقى جذور أشجارنا، وذرّاتُ ترابنا تدلّنا على عيسى عصفور.

ولئِن كان نسيم الجبل عليلاً... فإنّه لا يموت!!

المؤلف في سطور:

مطيع مرهج حمزة

- مواليد السويداء - الغارية ١٩٧٥م.
- عمل مدرّساً في ثانويات السويداء ودمشق.
- يعمل حاليّاً موجّهاً للغة العربيّة في دمسق.
- له ديوان شعري مخطوط بعنوان «لَها».
- نشر القصّة القصيرة للأطفال في مجلة أسامة.